بوحمارة في مرآة الصحافة الأجنبية:
قراءة في تمرد هزّ تاريخ المغرب من سنة 1902–1909"

الطالب الباحث: فؤاد المستفيد
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس–سايس
المغرب

المقدمة:

عرف المغرب في مطلع القرن العشرين واحدة من أكثر الفترات اضطرابًا في تاريخه الحديث. مزجت بين الضغوط الخارجية للقوى الاستعمارية الأوروبية والأزمات الداخلية التي عصفت بالحكم المركزي، شكل خلالها عمر ابن إدريس الجيلالي بن ادريس محمد اليوسفي الزرهوني، الملقب بوحمارة كواحد من أبرز الشخصيات التي تحدت السلطان والسلطة المركزية (المخزن). لكنه لم يكن مجرد متمرد عادي، بل استغل الدين والسياسة والطموح الشخصي ليصبح رمزًا للثورة في أعين البعض و"محتالًا" في أعين آخرين.

فكيف تمكن بوحمارة من جمع قبائل بأكملها تحت رايته؟

ما هي العوامل التي مكنته من الصمود لسبع سنوات في مواجهة "المخزن" وقوى الاستعمار؟ وكيف صوّرت الصحافة الفرنسية آنذاك هذا التمرد؟

هل كان بوحمارة مجرد مغامر سياسي أم أنه تجسيد للتمرد الشعبي على ظلم السلطة؟

في هذا المقال، سنتعمق في قراءة الأرشيف الفرنسي والصحف التي تناولت تمرد بوحمارة، الملقب بالروكي الذي أطلق عليه المخزن الشريف تذكيرًا بشخص آخر كان يحمل نفس الطموحات ظهر في القرن التاسع عشر وقُطع رأسه بسرعة[1] لنرصد تفاصيل تلك المرحلة، ودوافع هذا الرجل الذي هزّ عرش السلطان، والدروس المستخلصة من تأثيره على تاريخ المغرب

الفصل الأول: السياق التاريخي لظهور بوحمارة ودوافع التمرد

مع مطلع القرن العشرين، كان المغرب يواجه أزمة سياسية واجتماعية غير مسبوقة، حيث تداخلت عوامل داخلية وخارجية شكلت بيئة خصبة لظهور تمردات شعبية وقبلية. من بين هذه الحركات، كان تمرد بوحمارة الأكثر تأثيرًا وارتباطًا بسياق التحولات الكبرى التي عاشها المغرب. انطلاقًا من الأرشيف الفرنسي الذي تناول هذه الشخصية والأحداث المحيطة بها، يمكننا فهم أعمق لدوافع هذا التمرد وظروفه.

1 .الوضع السياسي في المغرب: ضعف السلطة المركزية

كانت السلطة المركزية (المخزن) تعاني من تفكك واضح نتيجة الضغوط الاستعمارية المتزايدة من فرنسا وإسبانيا، على المغرب لبسط سيطرتها عليه في إطار التنافس الذي شهدته أوربا خلال القرن التاسع عشر وذلك بعدما عاشت خلال هذه الفترة تطورا اقتصاديا مهما نتيجة الثورة الصناعية ونهج دول أوربا الغربية لسياسة الحمائية، فأصبح من اللازم عليهم البحث عن أسواق خارجية لتصريف فائض الإنتاج وجلب المواد الأولية[2] وفي هذا السياق الاقتصادي ونشوة التطور سعت الدول الأوربية، خاصة فرنسا وبريطانيا وألمانيا التنافس على المستعمرات بالقارتين الافريقية والأسيوية وبحكم الموقع الاستراتيجي للمغرب [3]وقربه من دار الحرب أوروبا، سعت عدة دول أوربية، حيث بدأت أولى التهديدات له بانهزامه عسكريا ضد فرنسا سنة 1844 في معركة إيسلي، ثم أمام إسبانيا سنة

1859-1860 في معركة تطوان[4]، ليتجلى للدول الأجنبية الضعف الكبير للإيالة الشريفة عسكريا على عكس ما كانوا يعتقدونه من قوة بعد الانتصار الباهر للمغرب في معركة وادي المخازن[5] التي ضللت بصدها لمراحل طويلة على المغرب، الأمر الذي دفع دولا أخرى تندفع وراء الضغط على المخزن وتهديد استقلاله، مثل: ألمانيا، بلجيكا، إيطاليا، بريطانيا...، فتحقق لهذه الدول توقيع اتفاقيات اقتصادية[6] غير متكافئة معه منحت امتيازات أخطرها انتشار ظاهرة الحماية القنصلية، التي استفزت المخزن والرعية وهددت مصالحهما الاقتصادية والاجتماعية والأمنية، بل حتى الدينية من خلال انتشار ظاهرة التبشير بين المسلمين واليهود المغاربة على السواء.

2- السياق الداخلي:

عرفت الوضعية الداخلية للمغرب تدهورا بعد وفاة السلطان المولى الحسن وما رافق ذلك من تكتم على وفاته من طرف الحاجب باحماد، الذي قام بسلسلة من الإجراءات الانتقامية ضد أشد المنافسين له على المناصب السامية بالمخزن الشريف من آل الجامعي حيث نكلَّ بهم في السجون[7]، ونفس الأمر قام به ضد باقي الأسر المخزنية المنافسة له، ليفرض عليهم أصغر أبناء المولى الحسن، عبد العزيز(1894-1908)، الذي سينتقل بداية شهر مارس للاستقرار في فاس بعد أن جاء من مراكش والرباط عند وصوله، حيث ظهر لأول مرة في العاصمة الفعلية للإمبراطورية والمغرب الشمالي كحاكم، مارس خلالها سلطته الشخصية وعمل على تنفيذ بعض الإصلاحات كانت هذه المهمة صعبة للغاية منطقة الحوز، أو المغرب الجنوبي، كانت منطقة هادئة، بينما كان سكان الجبال في الغرب أكثر تمردًا. كانت فاس، كما هو معروف، مدينة متمردة، وباستثناء المنطقة الغربية، كانت المناطق المحيطة بها تعد جزءًا من بلاد السيبة (التي تضم المناطق التي تعاني من تمرد مستمر ضد السلطة المركزية)"[8].

وفي إطار الإصلاحات الضريبية وتعنت بعض أصحاب الامتيازات من الرعية خاصة ذوي النفوذ الأجنبي من الحاصلين على الحماية القنصلية والمعفيين من الضرائب الشرعية، الذين شكلوا عصبة رافضة لضريبة الترتيب وأججوا باقي أفراد الرعية ضد السلطان وساهوا بذلك في تأزيم خزينة البلاد التي كانت تعاني من شح في المداخيل مقابل ارتفاع في المديونية[9]. وفي صيف 1903، بدأ الحديث في فاس عن وجود شخص يُسمى "الشرِيف"، كان يتنقل بين أسواق وادي إيناوين الواقعة شرق المدينة ويعمل على المصالحة بين القبائل. كما انتشرت أخبار عن تكتلات بين بعض أعيان القبائل في تلك المنطقة الذين كانوا يرفضون الإصلاحات التي فرضها المخزن الشريف وهذا كان يعتبر بمثابة علامة سلبية بالنسبة للسلطة المركزية في فاس، حيث كانت قوتها تعتمد على تقسيم القبائل وتفريقها[10]، إضافة إلى الصراعات الداخلية التي أضعفت حكم السلطان المولى عبد العزيز فشل المخزن في بسط نفوذه على المناطق القبلية، التي كانت تعيش في حالة من التمرد والرفض للسلطة المركزية، ما جعل العديد من القبائل عرضة للانقياد وراء أي شخصية تقدم نفسها كبديل، لتنضاف هذه الفتن لكوارث طبيعية مثل الجفاف والقحط، حيث اعتبر الصحفي الفرنسي**Pierre du Progrès** ، هذه الفترة بقوله: "كانت تُعرف بأنها "عصر الفوضى المغربية" عجز فيها المخزن على التعامل مع الانقسامات القبلية أو فرض سيطرته على المناطق النائية، خاصة شرق المغرب وشماله."[11]

2 .بوحمارة: صعود قائد يستغل الفوضى

ولد عمر ابن إدريس الجيلالي بن ادريس محمد اليوسفي الزرهوني الملقب بوحمارة في منطقة تازة سنة 1860إلى 1909 لعائلة متواضعة أظهر ذكاءً منذ صغره، تعلم أساليب التنظيم والخطاب السياسي درس الجيلالي في مؤسسة طلبة المهندسين، في فاس وتلمسان والجزائر العاصمة وباريس، وخدم كطوبوغرافي في الجيش ليصير بعد ذلك موظفا في القصر السلطاني بمراكش، ولما بلغ أربعين عامًا من عمره، عمل كاتبًا لدى مولاي عمر شقيق السلطان، لكنه تورّط في مؤامرة أثناء حملة مولاي الحسن على تافيلالت، فسُجن لمدة عامين. وعقب إطلاق سراحه، سافر إلى الجزائر وتونس قبل أن يعود إلى المغرب ويبدأ في تقديم نفسه كمرابط (رجل دين)[12]. برز بوحمارة في البداية كشخصية غامضة ومثيرة للجدل. في تقارير الأرشيف الفرنسي، وُصف بأنه "مغامر سياسي ومحتال" تمكن من

خداع العديد من القبائل بفضل ادعائه الانتماء إلى الأسرة الملكية، حيث أعلن في عام 1902 أنه مولاي محمد، الأخ الأكبر للسلطان عبد العزيز، وأنه الوريث الشرعي للعرش. استغل الوضع الاجتماعي والسياسي المتأزم في المغرب، حيث كانت القبائل تشكو من الظلم وتفتقر إلى الحماية من خلال خطاب ديني وسياسي ذكي، استطاع بوحمارة استقطاب عدد من القبائل مثل "آيت يوسي"، "الزّمور"، و"الحياينة". زعم أنه شريف ومن حقه أن يتولى الحكم بدلاً من السلطان، مما أكسبه تعاطف القبائل الساخطة على الأوضاع السياسية والاجتماعية[13].

كانت الصحافة الفرنسية تشير إلى ذكائه في توظيف الشعارات الدينية والاجتماعية لكسب الدعم. حيث قدم نفسه كإصلاحي يسعى لإنقاذ القبائل من "الظلم والجور" الذي تمارسه السلطة المركزية، مدعيا أنه السلطان الشرعي من أجل الإطاحة بالسلطان عبد العزيز، أما لقب بوحمارة، فقد أرجعته الصحافة الفرنسية بأن إدريس الزرهوني قد أقسم ألا يركب حصانًا مرة أخرى حتى يعتلي العرش ومن تم وهو يمتطي أتان أو "حمارة" إلى حين تحقيق مبتغاه، الذي لم يتحقق، ومن هنا جاء اسمه الذي يعني "أبو الحمارة."، بينما المخزن المغربي، فقد أطلق عليه اسم "الروكي" وهو لقب كان يعرف به المتمردين على السلطة وهو في نفس الأمر تذكير بشخص آخر كان يحمل نفس الطموحات التي راودت الإدريسي الزرهوني، وذلك خلال القرن التاسع عشر وكان مصيره قطع رأسه بسرعة ليكون عبرة لباقي المتمردين[14].

استعمل بوحمارة في ادعاءاته بعض الحيل بحكم عدم معرفة العامة، خاصة المناطق البعيدة عن العاصمة بالمولى محمد ، فاعتمد في خداعهم وتوهيم المواطنين بتغطية عينه اليسرى عند مقابلاته، لأن المولى محمد سبق أن فقد عينه اليسرى خلال "موسم التبوريدة"، ومعرفته بهذا الحدث كان بسبب اشتغاله كاتبا بالقصر الملكي عند المولى عمر شقيق السلطان المولى عبد العزيز ، كما ساعدت معرفته بصياغة التقارير المخزنية والأختام السلطانية في إيهام الموطنين بالقبائل والمدن الشرقية والشمالية بأن هذا المحتال صادق في كلامه فانطلت حيلته على الكثيرين. على الرغم من هذا، ما كان لأبو حمارة أن يحصل على كل هذا الدعم لولا رفض بعض القبائل للسلطان عبد العزيز بسبب إسرافه وعمله على فرض ضريبة الترتيب"[15]، وقد أشار في هذا الصدد الصحفي الفرنسي Pierre du Progrès . في مقاله بالجريدة الفرنسية Le Progrès الصادرة بتاريخ السبت 23 يناير1909، بقوله :" حوالي عام 1902، سُمِع في فاس عن "شريف" معين يجوب الأسواق في وادي إيناون، شرق العاصمة فاس، ويصالح بين القبائل. كما عُلم أن النخبة المحلية كانت تتبادل "السلهام" كرمز للتحالف. قريبًا، حيث قامت إحدى فصائل "آيت يوسي" بنهب قصر القائد، وقام "الأزمّورين" بتخريب سوق مكناس مستغلين ضعف المخزن الذي لم يستطع تجهيز جيش كبير لمواجهة التمردات، حيث أرسل حوالي عشرين جنديا فقط للقبض على المحرّضين، لكنها باءت بالفشل، حيث سرعان ما عادت أدراجها، معلنتا للسلطان ظهور خطر جديد من شخص يُدعى "بوحمارة" كان يُلقى الصلاة باسمه في مدينة تازة، هذا الخبر المقلق دفع بالسلطان المولى عبد العزيز إلى إرسال أعداد مهمة من الجنود المخزنيين قدروا بالمئات لاعتقال بوحمارة الذي لم يكن يملك حينها قوات كبيرة. وكما هو معروف، فإن "المَحلة" كانت عادة تكتفي بالمرور عبر القبائل وتحصل على مؤونتها منهم، وتنفذ ما طلب منها، لكن هذه الحملة نهبت قبائل "الحياينة"، التي تعتبر قبائل مخزنية وفية، لتصبح بعد هذا التهور من الجنود ملاذ لبوحمارة الذي أخبرهم أنه المولى امحمد ابن السلطان المولى الحسن، مما دفعهم إلى مساندته والثورة على المحلة والانتصار عليها. هذا الانتصار أثار المزيد من القلق العزيزي وبدأت المعلومات الدقيقة حول بوحمارة في

3 .دعم القبائل ورفض الإصلاحات المركزية

اعتمد بوحمارة في حركته على استغلال الرفض الشعبي، خاصة من ذوي الامتيازات لمحاولات السلطان إدخال إصلاحات التي بعض القبائل تعديًا على عاداتها التقليدية، ونفس الأمر عند النخب التي كانت مستفيدة من الامتيازات الأجنبية في إطار الحماية حيث حاول المخزن تعزيز الجبايات والضرائب لدعم الخزينة التي كانت شبه خاوية، نتيجة تسديد غرامة هزيمة تطوان وأيضا نتيجة دوامة القروض التي بدأت مع إصلاحات السلطان المولى الحسن، وعدم تجاوب الطبقات البورجوازية المغربية معها بشكل إيجابي،

حيث تبنى أغلبيتهم الحماية الفردية وأعفي من أداء الضرائب، لتثير مرة أخرى إصلاحات المولى عبد العزيز غضب القبائل التي انضمت لاحقًا إلى تمرد بوحمارة، الذي استغل دهاءه العلمي والسياسي والديني بعدما تورّط في السابق أثناء اشتغاله بدار المخزن في مؤامرة على عهد حملة مولاي الحسن على تافيلالت، سُجن على إثرها مدة عامين. وعقب إطلاق سراحه، سافر إلى الجزائر وتونس قبل أن يعود إلى المغرب ويبدأ في تقديم نفسه كشريف ورجل دين متقشف داعي إلى الله بالموعظة الحسنة وينهى عن المنكر، فكان يجوب القبائل يُقدّم عروضًا سحرية ويدّعي أنها معجزات وكرامات خصها الله به باعتباره من أولياء الله الصالحين، حيث استطاع خداع أهل الشرق والشمال فيما بعد بذلك كسب خلالها ثقة القبائل ورأت فيه الشريف المخلص صاحب القداسة والكرامات، وقد ساعدته هذه التصورات والانطباعات الزائفة في إعلان عن نفسه بأنه شريف ينحدر من السلالة النبوية، ثم ادّعى بعدها بأنه هو المولى محمد بن الحسن، الأخ الأكبر للسلطان[17]، وأصبح مُطالبًا بالعرش. وبذلك، أصبح بوحمارة "الرّوكي"، وهو لقب يطلق على من يسعى للإطاحة بالسلطان.

انتشرت شهرته، وواصل القيام بحيله الناجحة. حتى وصلت أخباره إلى طنجة، وتنبأ له أهل الزوايا والمرابطون زورا بها بأنه سيصبح سلطانًا وفي الدواوير المغربية، كان الناس يحتفلون بمعجزات الرّوكي، أمام ازدياد صيت بوحمارة، قام المولى عبد العزيز بتنظيم أربع محلات عسكرية مستقلة لصد تمرد هذا المتمرد الفتان، حيث بلغ عدد الجنود خلال الحملة العسكرية الأولى حوالي 15,000 رجل. تقدمت هذه القوات حوالي 100 كيلومتر من العاصمة، حتى وصلت إلى قبائل "الريف"، التي أعلنت ولائها لبوحمارة، لكن الخلاف دب بين قادة القواد، وعادت القوات الشريفة إلى عاداتها في التماطل وعدم الاستعداد لإخماد الثورة[18].

وفي22 دجنبر الموافق لأواخر من شهر رمضان المبارك عام 1902، هاجم فرسان الريف تحت قيادة المتمرد بوحمارة معسكر المولى عبد العزيز بشكل مفاجئ، واستولوا على المعسكر واستحوذوا فيه على المؤن والأسلحة وحتى النساء. بينما عدد كبير من جنود السلطان المقدر عددهم بـ 15,000 رجل فرّوا من شدة الهجومات المتمرد، حيث تعرضوا هم أيضا للنهب من طرف بعض القبائل أثناء انسحابهم وعودتهم للعاصمة فاس حتى اجتازوا أسوارها دون أسلحة وبثياب ممزقة[19].

هذا الانتصار فتح الطريق لبوحمارة نحو العاصمة فاس، لكنه لم يستغل الوضع المتدهور للمخزن والهزيمة التي لحقت به، حيث عاد إلى تازة، محاطًا بأبهة الملوك. وتزوج من ابنة قبيلة القائد حمادة، أحد زعماء قبيلة بني بوزكو، وهي إحدى القبائل القوية، وأنشأ نوعًا من المخزن الخاص به، الذي انضمت إليه العديد من القبائل[20].

في مقال لإحدى الصحف الفرنسية، أُشير إلى أن القبائل التي التفت حول بوحمارة وهي: أربعة عشر قبيلة، منها قبيلة تمسمان وبني توزين وبني وليشك وبني سعيد وتفرسيت وامطالسة وبني سيدال وبني بوغافر وبني شيكر ومزوجة وبني بويفرور، كانوا يعتبرون تمرده فرصة للثورة على الفساد وعدم الكفاءة في إدارة المخزن، بالإضافة إلى عجز السلطان عن مواجهة الأطماع الاستعمارية[21].

في ظل هذا الاكتساح المتزايد لبوحمارة بالمغرب الشرقي والتفاف مجموعة من القبائل المتمردة حوله، بدأ المخزن الشريف في تنظيم حملة ثانية، هذه المرة بحملة أكبر وخطة استراتيجية حقيقية. كان الهدف منها ضرب ضربة قاسية، القبض على بوحمارة بأي ثمن، وإحضاره إلى فاس.

4 .الخطاب الإعلامي الفرنسي: بوحمارة بين البطولة والخطر

تناولت الصحافة الفرنسية تمرد بوحمارة بأسلوب يعكس اهتمامها بالمغرب كمجال للنزاع الاستعماري. وصفته بعض الجرائد بأنه "خطر على استقرار المغرب" بسبب تهديده للسلطان، بينما رأى آخرون فيه نموذجًا للمتمرد الذي قد يُستخدم كورقة ضغط ضد المخزن لتحقيق المصالح الاستعمارية.

كانت هذه الصحف تتحدث عن تمرده باعتباره حركة متمردة ذات جذور قبلية ودينية، لكنها أشارت أيضًا إلى ذكائه السياسي في بناء قاعدة دعم قوية من القبائل[22].

5 .تداعيات المرحلة الأولى من التمرد

في الفترة الأولى من تمرده، وتحديدًا بين 1902 و1903، استطاع بوحمارة السيطرة على العديد من المناطق الشرقية والشمالية، مثل تازة ووادي إيناوين، حيث تفوق على قوات "المخزن" في عدة معارك، كما وثقت الصحافة الفرنسية. في معركة 29 يناير 1903، تمكن من هزيمة الجيش السلطاني رغم التفوق العددي للأخير، مما جعله قائدًا شعبيًا بين القبائل، لكنه أثار قلقًا متزايدًا لدى المخزن والقوى الأوروبية على حد سواء[23].

النتيجة:

تمرد بوحمارة لم يكن مجرد حدث عابر في التاريخ المغربي، بل كان انعكاسًا لأزمة بنيوية عميقة في النظام السياسي والاجتماعي للمغرب آنذاك. استغل ضعف السلطة المركزية وتفكك القبائل ليقدم نفسه كبديل ثوري قادر على استعادة العدل في نظر أتباعه. ومع ذلك، لم يكن تمرده بعيدًا عن أعين القوى الاستعمارية التي كانت ترى فيه فرصةً ومصدر قلق في آن واحد.

الفصل الثاني: معارك بوحمارة ضد المخزن والتحولات العسكرية الكبرى(1903–1905)

مع توسع نفوذ بوحمارة في المناطق الشرقية والشمالية للمغرب، شهدت البلاد مواجهات عسكرية دامية بين قوات "المخزن" وجيش المتمردين. هذه الفترة تمثل مرحلة التحولات العسكرية الكبرى التي حددت ملامح الصراع بين بوحمارة والسلطة المركزية، حيث برز بوحمارة كقائد عسكري ذو استراتيجية فعالة، بينما واجهت قوات السلطان مصاعب كبيرة في التصدي له[24].

1 .معركة 29 يناير 1903: نقطة التحول الأولى

تُعتبر معركة 29 يناير 1903 واحدة من أبرز المحطات في تمرد بوحمارة، حيث تمكن من إلحاق هزيمة كبيرة بقوات "المخزن". وفقًا لما ورد في الأرشيف الفرنسي، كان الجيش السلطاني يمتلك تفوقًا عدديًا واضحًا، إلا أن استراتيجية بوحمارة اعتمدت على تحركات سريعة ومباغتة أدت إلى زعزعة استقرار قوات السلطان[25].

بعد هذه المعركة، تعرضت السلطة المركزية لضربة قاسية، حيث فقدت جزءًا كبيرًا من سيطرتها على القبائل في المناطق الشمالية، مما دفع بوحمارة لتعزيز موقعه كزعيم شعبي وأصبحت خلالها فاس قلب الصراع بين بوحمارة والمخزن، وفي هذا الأمر تشير الوثائق الفرنسية إلى أن مدينة فاس كانت تعيش حالة من الذعر، حيث كان الناس يخشون سقوطها في يد المتمرد. في إحدى المعارك الحاسمة قرب فاس في يناير 1903، استطاع بوحمارة أن يحقق انتصارًا مذهلًا، مما أدى إلى انهيار معنويات قوات السلطان[26].

2 .الاستراتيجية العسكرية لبوحمارة: انتصارات رغم قلة الموارد

أظهرت الصحف الفرنسية التي تناولت تمرده أن بوحمارة اعتمد على استراتيجية ذكية تقوم على استغلال الطبيعة الجبلية للمناطق التي سيطر عليها، مما صعب على قوات "المخزن" مواجهته. كان يعتمد على ولاء القبائل، التي كانت توفر له المقاتلين والإمدادات، مقابل وعود بحماية مصالحها ومواجهة الفساد الذي نسبه للسلطان[27].

3 .رد فعل "المخزن": محاولات فاشلة لاستعادة السيطرة

في مواجهة تصاعد نفوذ بوحمارة، بدأ "المخزن" في تنظيم حملات عسكرية متتالية لمواجهته. إلا أن الأرشيف الفرنسي يشير إلى هذه الْمحَلَاتْ كانت تواجه صعوبات كبيرة بسبب ضعف التنسيق بين القبائل الموالية للسلطان[28].

بعض القبائل التي كانت موالية للسلطان انضمت إلى صفوف بوحمارة بعد هزائم المخزن.

وتم خلالها استنزاف الموارد المالية والعسكرية للمخزن مما جعله غير قادر على تنظيم جيش قوي بما يكفي لصد التمرد، لدرجة أن الخوف والقلق بدأ يحف بالعاصمة فاس كما سبق الإشارة إلى ذلك في ظل تقدم بوحمارة نحو العاصمة، بينما المخزن المركزي يواجه تحديات كبيرة في مواجهة التمرد، وتزايد دعم بوحمارة من طرف القبائل، حيث عزز موقفه أكثر في صراع مع المخزن المغربي الذي حاول تنظيم قوات جديدة لملاقاة بوحمارة، إلا أن الوضع العسكري كان صعبًا للغاية بسبب الانقسامات الداخلية والهزائم المتواصلة، حيث أثار تمرد بوحمارة قلق القوى الأوروبية التي كانت تراقب الوضع في المغرب عن كثب. الصحافة الفرنسية، مثل صحيفة Le Progrès، وصفت بوحمارة بـ."المتمرد الداهية" و"الشريف المزيف"، وأشارت إلى خطر سقوط فاس وما قد يعنيه ذلك لمصالحها الاستراتيجية.

مفاوضات وحصار فاس: مع اقتراب قوات بوحمارة من فاس، بدأ المخزن في إجراء مفاوضات، لكنها كانت تفتقر إلى القوة الكافية لتوقيع اتفاقيات فعالة معه[29]

. **التوترات الداخلية:** على الرغم من بعض الانتصارات التي حققها "المخزن"، كانت الهزائم المتوالية تفتح المجال لمزيد من الداخلية وتدعم موقف بوحمارة بشكل أكبر.

. إضعاف الحكومة المركزية: رغم بعض النجاحات التكتيكية التي حققتها الحكومة، إلا أن الوضع العسكري ظل صعبًا للغاية، حكومة "المخزن" تجد صعوبة في استعادة السيطرة على المناطق التي سيطر عليها بوحمارة[30]، بالرغم من انتصارات بوحمارة، إلا أن المخزن ظل عازما على المواصلة في القضاء على تمرده، وذلك من خلال إرساله لمحلات عسكرية لملاقاة بوحمارة في محاولة لوقف تقدمه، ولكن كانت هذه المحاولات واجهت صعوبة بالغة بسبب تزايد دعم القبائل المتمردة، الأمر الذي حتم على المخزن تنظيم عسكريا على المستويين البشري والتجهيزي لمواجهة التحديات العسكرية، فكانت هناك جهود لزيادة التنظيم العسكري والتعبئة لملاقاة بوحمارة. بهدف تأمين المنطقة من التمرد بشكل أكبر، بما في ذلك إرسال قوات جديدة.[31]

4 .عرض رؤوس القتلى في فاس: رمزية الانتصار

بعد معارك ناجحة للمتمرد بوحمارة لجأ إلى عرض رؤوس القتلى المقطوعة في فاس، وهي عادة عسكرية مغربية تقليدية تهدف إلى ترهيب الأعداء وإبراز هيمنة المنتصر. الاحتفالات والمظاهرات الشعبية: كانت هناك احتفالات واسعة في فاس بعد الانتصار، وتضمنت أيضًا عروضًا بموسيقى وراقصين، وكان الدعم الشعبي لبوحمارة يتزايد بشكل مستمر، المعركة والاحتفالات: بعد معركة 29 يناير 1903، تم عرض رؤوس القتلى كغنائم حرب في فاس. تم عرض حوالي 40 رأسًا على بوابات المدينة، وهو ما يعكس الطقوس التقليدية بعد الانتصارات العسكرية في تلك الفترة

في إحدى التقارير الفرنسية، وُصف مشهد عرض الرؤوس في "باب المحروق" بفاس بأنه كان مؤثرًا جدًا على سكان المدينة، حيث رآه البعض دليلاً على قوة بوحمارة، بينما اعتبره آخرون تماديًا في الوحشية[32].

الأمر الذي جعل المخزن من أجل تنظيم حملة عسكرية حاسمة ضد المتمرد القيام بمجموعة من التحضيرات الطويلة، ليس فقط من الناحية العسكرية، بل أيضًا بسبب المفاوضات المتعددة التي يجب إجراؤها مع القبائل التي ستمر منها القوات لضمان التحالفات الضرورية.

في 29 يناير، كانت "المحلّة" الشريفة ومتمردي بوحمارة على بعد حوالي 25 كيلومترًا فقط من بعضهما البعض ولم يكن لدى بوحمارة سوى 2000 رجل و700 فارس. وكانت قواته تشعر بالأمان بين قبائل "الزّمّور"، لكن هؤلاء، ولسبب شائع في المغرب، ربما من باب التسلية، هاجموا فرسان بوحمارة وبدأوا في نهب معسكره.

قام بوحمارة بهجوم مضاد، وتمكن من دحر المهاجمين، لكنه اصطدم بالقوات الشريفة الكبرى، فتفرقت قواته كالمعتاد في كل الاتجاهات.

سرعان ما انتشرت شائعة في فاس بأن الرّوكي قد أُلقي القبض عليه فتجمعت الحشود على الطرقات لرؤية هذا المحرّض الشهير. ولكن بدلًا من ذلك، لم يُعرض أمام الجمهور سوى بعض الأسرى ورؤوس مقطوعة لأنصار المتمرد بوحمارة[33]، لأنه لو كان بوحمارة قد أُسر بالفعل، لكان قد خضع لـ "الطوافة"، وهي عقوبة يتم فيها إدخاله إلى فاس وهو راكب على ظهر حمار، يتعرض للضرب بالعصي من قبل رجال المخزن، ويُهان من قِبل عامة الناس، لكن الرّوكي لم يُقبض عليه بل فر إلى جبال الريف، مصابا بجروح طفيفة في كتفه، حيث هناك كان في مأمن، لأن شرف القبيلة، أو ما يُعرف بـ"المزاغ"، يمنعهم من تسليمه، لأنه أصبح أحد أفرادهم عن طريق الزواج.

هذه المرحلة من حياة بوحمارة لم تكن معروفة بشكل كافٍ. لكن الجميع يعرفون ما حدث بعد ذلك وحتى الأيام الأخيرة، إذ لم تتوقف الصحافة عن الحديث عن شخصيته.

5 .التحولات القبلية: انشقاقات وتحالفات جديدة

مع استمرار المعارك، تغيرت خريطة الولاءات القبلية بشكل كبير، حيث انضمت قبائل مثل الحياينة وغياثة إلى بوحمارة بعد أن وعدها بالحماية والعدالة، هذه القبائل كانت في البداية ترفض التمرد لكنها أُجبرت على الانضمام بعد أن شعرت بأن المخزن أصبح عاجزًا عن حمايتها، خاصة في مرحلة كانت خلالها القبائل الموالية لبوحمارة تواصل التوسع بينما كانت القبائل الموالية لـ "المخزن" تتراجع. هذا التغير في ولاءات القبائل أثر بشكل كبير على سير المعارك بعد سيطرته على مناطق واسعة في الشمال[34].

6 .انعكاسات الدعم القبلي على قوة بوحمارة

.التوترات بين القبائل: بينما كانت بعض القبائل تزداد دعمًا لبوحمارة، كانت هناك تفاعلات معقدة بين القبائل الموالية لـ.لمخزن وقبائل أخرى، ما زاد من تعقيد الوضع العسكري في الشمال. تمكن بوحمارة من استغلال النزاعات بين القبائل لإضعاف قوات السلطان، معتمدًا على شعارات العدالة الاجتماعية والدينية لكسب ولاء المزيد من القبائل[35].

أصبح بوحمارة يسيطر على المزيد من القبائل، وتزايد دعمه بين القبائل التي كانت تُعتبر في البداية محايدة. كان له تأثير متزايد في مناطق مختلفة من الشمال المغربي. بعد سيطرته على مناطق واسعة في الشمال، أسس بوحمارة نظامًا إداريًا خاصًا به. فرض ضرائب على القبائل، وأقام جهازًا أمنيًا لحماية نفوذه. كما أقام تحالفات مع زعماء محليين ووجهاء القبائل لضمان الولاء، أمام تزايد توسعاته وتقدم قواته في المناطق المحيطة بفاس، بدأ بوحمارة يكتسب شرعية أكبر بين القبائل المتمردة. قبائل مثل المهايّة وغياثة التي أصبحت أكثر تأييدًا له.

بدأ المخزن بعد سلسلة من الهزائم في عقد مفاوضات مع بعض القبائل لتفادي المزيد من التمرد والاضطراب في فاس، ولكن هذه المفاوضات كانت محدودة التأثير.

7 .الضغط الأوروبي: مراقبة وتحليل التمرد

تناولت الصحافة الفرنسية، وخاصة الجرائد المهتمة بالشأن المغربي، تمرد بوحمارة كحدث يقلق القوى الاستعمارية:

رأت فرنسا في بوحمارة تهديدًا للنظام السياسي في المغرب، لكنه في الوقت ذاته كان فرصة لزيادة تدخلها في الشأن المغربي بحجة مساعدة السلطان.

كان تمرده أيضًا مصدر قلق لإسبانيا، خاصة مع تمدده نحو المناطق الشمالية التي كانت تُعتبر مناطق نفوذ إسباني[36].

مع حلول عام 1905، كان تمرد بوحمارة قد أصبح قضية وطنية ودولية في آن واحد. انتصاراته العسكرية ودعمه القبلي جعلاه قوة لا يُستهان بها، بينما عانى المخزن من هزائم مستمرة وضغوط داخلية وخارجية. في هذه المرحلة، كان الصراع قد تخطى كونه نزاعًا داخليًا وأصبح يمثل اختبارًا حقيقيًا لقدرة السلطة المركزية على الحفاظ على استقرار المغرب[37].

الفصل الثالث: نهاية التمرد وسقوط بوحمارة(1906–1909)

شهدت السنوات الأخيرة من تمرد بوحمارة تغيرات كبيرة على المستويين السياسي والعسكري، حيث بدأت قوات "المخزن" من قوى دولية في استعادة سيطرتها التدريجية على المناطق التي احتلها بوحمارة. ومع انشقاق عدد من القبائل التي كانت تدعمه، وضعف ولائه الداخلي، بدأت نهايته تلوح في الأفق. في هذا الفصل، نتناول أهم المحطات التي قادت إلى سقوط بوحمارة، استنادًا الأحداث الموثقة في الأرشيف الفرنسي وتحليلها.

1 .تراجع النفوذ القبلي: انشقاقات من الداخل

مع مرور الوقت، بدأت القبائل التي دعمت بوحمارة في البداية تشعر بالإنهاك من الحروب المستمرة وانعدام الاستقرار، كما انشقت عنه قبائل رئيسية مثل: الحياينة والريف فبدأت في التخلي عن دعمه بعد أن رأت أن وعوده بالإصلاح والعدالة لم تتحقق، كما عرف تصاعد السخط الداخلي وتمرد بعض زعماء القبائل على حكم بوحمارة بسبب فرضه ضرائب ثقيلة على المناطق التي سيطر عليها، مما أدى إلى تقويض قاعدته الشعبية[38].

2 .التحول في استراتيجية "المخزن"

بحلول عام 1906، بدأ المخزن بإعادة تنظيم صفوفه بمساعدة مستشارين عسكريين أوروبيين.

تم الإشارة إلى أن الجيش المركزي كان يواجه صعوبة في توحيد القبائل الموالية له، بينما كان بوحمارة يواصل جذب المزيد من الأنصار. مع اقتراب فاس من السقوط في يد بوحمارة، بدأ المخزن في اتخاذ تدابير جديدة لتعزيز قواته وتحصين المدينة:

- تحديث الجيش السلطاني: استخدم السلطان مولاي عبد العزيز وحدات جديدة مزودة بأسلحة حديثة.
- الدعم الأوروبي: حصل "المخزن" على دعم فرنسي وإسباني لمواجهة بوحمارة، وهو ما وفر له الموارد اللازمة لشن هجمات واسعة.

- تكتيكات جديدة: اعتمد الجيش السلطاني على الحصار الطويل والإضعاف التدريجي لقوات بوحمارة[39].

3 .معركة تازة 1907: البداية الحقيقية للنهاية

كانت معركة تازة واحدة من الضربات القوية التي تعرض لها بوحمارة بعد حصار استمر لعدة أشهر، تمكنت خلاله قوات المخزن من استعادة المدينة، مما أدى إلى تراجع قوات بوحمارة نحو الشمال، حيث ذكر الأرشيف الفرنسي أن معركة تازة كانت نقطة تحول رئيسية، حيث فقد بوحمارة السيطرة على جزء كبير من قواته وبدأ في فقدان الدعم القبلي[40].

4 .انشقاقات داخل جيش بوحمارة

مع تصاعد الخسائر في المعارك، بدأ جيش بوحمارة يعاني من انشقاقات كبيرة:

- انخفاض الدعم القبلي: القبائل التي عانت من الحرب بدأت ترفض تقديم الدعم العسكري أو اللوجستيكي.
- تفكك القيادة العسكرية: قادة عسكريون رئيسيون في جيش بوحمارة انشقوا وانضموا إلى قوات السلطان.

5 .القبض على بوحمارة: السقوط النهائي

عمل السلطان المولى عبد العزيز على إرسال جيشًا بعد الآخر للقبض على المتمرد الداهية، لكنه كان دائما ينجح في صدهم بمساعدة القبائل المتحالفة معه. ليسقط في النهاية تحت قبطت المخزن، الذي استطاع هزيمة المتمرد عند مشارف تازة في عام 1909 بعد سنوات من الملاحقة العسكرية، وقع بوحمارة في قبضة قوات السلطان، حيث تم القبض عليه وهو يحاول الهروب مع مجموعة صغيرة من أتباعه[41]، ووفقًا للصحيفة الفرنسية تقول:" القانون العربي يعاقب دائما "الدم بالدم"[42]، كان أبو حمارة مسؤولاً عن مقتل الآلاف وتسبب في تعليق العديد من الرؤوس على أسوار تازة. كعقوبة، تم قطع أذرع العديد من أتباعه كتحذير لمن تبقى من المتمردين، أما بوحمارة فقد نقل إلى فاس تم عرضه في قفص أمام المواطنين وصدر الحكم بإعدامه، ونُفذ ذلك علنًا ليكون عبرة للآخرين، تحت قيادة السلطان مولاي عبد الحفيظ، الذي خلف المولى عبد العزيز، واستطاع تحقيق تقدم ضد قوات بوحمارة، وقد أرجعت الوثائق الفرنسية سهولة إلقاء القبض عليه للخيانة من بعض أتباعه التي كانت العامل الحاسم في أسره وعرضه في قفص حديدي عبر المدن كرسالة تحذيرية لباقي المتمردين، حيث حكم عليه بالإعدام بطريقة رمزية؛ تم تسليمه للأسود لافتراسه، وهو مشهد وثقته الصحافة الفرنسية آنذاك بتفصيل شديد[43].

شهدت العاصمة فاس **احتفالات النصر** عامة، وشملت عروضًا عسكرية في الأماكن العامة مثل باب المحروق مما يعكس الوضع الاجتماعي والسياسي في المدينة.

بعد أن تم عرضه في القفص كعبرة لأنصاره الذين ظلوا أحرارًا، انتهى المطاف بأبي حمارة بإلقائه إلى الأسود لتلتهمه. كانت هذه النهاية بمثابة عقوبة رادعة لكل من تسوّل له نفسه الخروج على السلطان[44].

6 .دور الصحافة الفرنسية في نهاية التمرد

كانت الصحافة الفرنسية تتابع عن كثب تطورات تمرد بوحمارة، حيث أشارت بعض الجرائد إلى ضعف بوحمارة المتزايد مع تراجع الدعم القبلي، ركزت التقارير على دور الدعم الفرنسي والإسباني في إنهاء التمرد، مشيرة إلى أن استقرار المغرب كان ضروريًا لمصالح القوى الأوروبية.

اعتبرت بعض الصحف أن نهاية بوحمارة مثلت عودة الهيبة للسلطان، لكن ذلك كان مؤقتًا نظرًا للتحديات السياسية الخارجية.

7 .أثر سقوط بوحمارة على المغرب

سمح سقوط بوحمارة للمخزن باستعادة سيطرته على مناطق الشمال والشرق، ولو بشكل مؤقت، حيث استغل الأوروبيون ضعف المغرب خلال التمرد لزيادة نفوذهم في الشؤون الداخلية للمغرب مما أتاح لهم بداية احتلال المغرب منذ سنة 1907 بداية من وجدة، ثم الدار البيضاء وصولا للعاصمة فاس سنة 1911[45].

خاتمة:

لقد شكل سقوط بوحمارة نهاية واحدة من أكبر التمردات في تاريخ المغرب الحديث، لكنه كشف عن عمق الأزمات الداخلية التي كانت تعصف بالبلاد. ورغم هزيمته عسكريًا وسياسيًا، إلا أن تمرده كان مؤشرًا على التغيرات الكبرى التي كانت تنتظر المغرب، خصوصًا مع تزايد التدخل الأجنبي واستمرار الأزمات السياسية والاجتماعية.

الهوامش:

[1] . **Bibliothèque nationale et universitaire de Strasbourg, Journal : Der Elsässer, Contributeur : Schies, Julien (1875–1957). Directeur de publication, 1885–1939, Strasbourg P. 2.**

[2] . **Gérard, Jules, L'Afrique du Nord : description, histoire, armée, populations, administration et colonisation, chasses, le Maroc... (2e éd.), Éditeur : E. Dentu (Paris), 1860, P. 370.**

[3] . **Gérard, Jules, L'Afrique du Nord : description, histoire, armée, op. cit, P. 370.**

[4] . **Arch, Jean Alengry ،Les relations franco– espagnoles et l'affaire du Maroc : la France et l'Espagne au Maroc, La Vie Universitaire "Maurice D'Albigny, Éditeur, 1920, Paris, P.110.**

. **Archives Nantes, TANGER, Légation et Consulat, 675PO/A. 76.**

[5] **Gérard, Jules, L'Afrique du Nord : description, histoire, armée, op. cit, P. 373.**

[6] . **Ibide, P. 383.**

[7]. **مصطفى الشابي، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، مطبعة فضالة، المحمدية، ط1، 1995، ص، 31**

[8] . **Bibliothèque nationale de France, Robert De Caix, « Lettre du Maroc », Journal des débats politiques Et littéraires, Dimanche 1er Mars 1903, P. 2**

[9] . **Gérard, Jules, L'Afrique du Nord : description, histoire, armée, op. cit, P P. 373–375.**

[10] . **Ibidem.**

[11] . **Bibliothèque nationale de France, Pierre du Progrès, « LE ROGUI », Journal Le Progrès, Quinzième Année. —N «4175 5 CENTIMES Le NUMERO, Samedi 23 Janvier 1909, P.1**

[12] . **Ibidem.**

[13] . Ibidem.

[14] . Bibliothèque nationale de France, Robert De Caix, « Lettre du Maroc », Journal des débats politiques Et littéraires, P. 1.

[15] . Bibliothèque nationale de France, Pierre du Progrès, « LE ROGUI », Journal Le Progrès, op. cit, P.1.

[16] . Ibidem.

[17] . Bibliothèque nationale de France, Robert De Caix, « Lettre du Maroc », Journal des débats politiques Et littéraires, P. 2.

[18]. Bibliothèque nationale et universitaire de Strasbourg, Journal : Der Elsässer, op. cit, P. 3

[19]. Bibliothèque nationale de France, Robert De Caix, « Lettre du Maroc », Journal des débats politiques Et littéraires, P. 1

[20] . Ibidem.

[21] . Ibidem.

[22]. Bibliothèque nationale et universitaire de Strasbourg, Journal : Der Elsässer, op. cit, P. 2.

[23] . Bibliothèque nationale de France, Pierre du Progrès, « LE ROGUI », Journal Le Progrès, op. cit, P.1

[24] . Ibidem.

[25]. Ibidem.

[26] . Ibidem.

[27] . Bibliothèque nationale de France, Pierre du Progrès, « LE ROGUI », Journal Le Progrès, op. cit, P.1

[28] . Ibidem.

[29] . Ibidem.

[30] . Bibliothèque nationale et universitaire de Strasbourg, Journal : Der Elsässer , op. cit, P. 2.

[31] . Ibidem.

[32] . Ibid, P.1.

[33] . Ibidem.

[34] . Bibliothèque nationale de France, Pierre du Progrès, « LE ROGUI », Journal Le Progrès, op. cit, P.1

[35] . Ibidem.

[36] . Bibliothèque nationale et universitaire de Strasbourg, Journal : Der Elsässer, op. cit, P. 2

[37] . Ibidem .

[38]. Bibliothèque nationale de France, Pierre du Progrès, « LE ROGUI », Journal Le Progrès, op. cit, P.1

[39]. Bibliothèque nationale et universitaire de Strasbourg, Journal : Der Elsässer, op. cit, P. 2

[40] . Ibidem.

[41] . Bibliothèque nationale et universitaire de Strasbourg, Journal : Der Elsässer, op. cit, P. 2

[42] . Ibidem.

[43] . Ibidem.

[44] . **Bibliothèque nationale de France, Pierre du Progrès, « LE ROGUI », Journal Le Progrès, op. cit, P.1**

[45] . **Bibliothèque nationale et universitaire de Strasbourg, Journal : Der Elsässer, op. cit, P. 2.**